العلمانية فى بيئتها الأولى

بقلم

طه الدسوقى حبيشى

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونسترشده ، ونعوذبه من شرور أنفسنا وسيئآت أعمالنا ، من يهده الله فلامضل له ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق الذى أرسى قواعد الحق . وبين للناس الهدى من الضلال ، وتركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، وعلى آله وأصحابه الذين حولوا معه تلك الرسالة إلى واقع تاريخى ملموس ، وفكانوا بحق المجتمع المثالى الذى يجب أن يحتذى والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإننا لا نعدم فى التاريخ ، كما أننا لا نعدم فى مجال العلم والمعرفة قضايا تطرح خطأ ، ويدور حولها الجدل والنقاش ، ولا تطرح القضية طرحا خاطئاً إلا وهى تحمل مع طرحها بذور استقصاء الحل ، وخروجها عن إمكان حسمها .

تطرح القضايا أحياناً طرحا خاطئا ، وقد يقصد البعض إلى طرحها على هذا النحو لا لشىء إلا لأنهم يريدون أن تتجادل جماعة من البشر ، ويشتد بينهم الجدال ، حتى يسلمهم إلى العداوة والبغضاء ، ويورثهم الخلاف الذى يجعلهم طوائف وشيع حتى تتفتت قواهم ، وتذهب ريحهم .

ومن بين القضايا التى طرحت على هذا النحو ، قضية الصراع بين العلم والدين ، وأنهما لايلتقيان ، فإما علم بلا دين ، وإما دين بلا علم ، وتتساءل الإنسانية اليوم وقبل اليوم فى أى هذين الخطين تسير ، وأى صبغة نصطبغ بها فى حياتنا التى نعيش فيها ، حتى نحقق لأنفسنا السعادة ، ولأبناء نوعنا الرخاء .

هل نسير فى خط الدين ، ونسلم قيادنا إلى رب العالمين ، واثقين بما يصنع بنا ويفعل ، مطمئنين إلى تحقيق السعادة من هذا الطريق المأمون ؟

أو نسير فى طريق العلم ذلك الذى يوقفنا من خلال التجربة المعملية على حقائق الأشياء ، ويضع حواسنا الواحدة بعد الأخرى على ما حولنا من الكائنات والموجودات ، ثم يرفض كل شىء تعجز الحواس عن إدراكه ، ويولى ظهره لكل حقيقة تتأبى على الحس ، أو ترفض أن تكون فى دائرة اختصاصه ؟ .

نجد فريقاً من الناس قد اتخذوا لأنفسهم خط الدين منهجاً وساروا عليه ، واتخذوا من الخطوط الأخرى موقفاً معادياً ، ووضعوها فى خندق مقابل للخندق الذى يجلسون فيه .

وفريقاً آخر اتخذوا سبيل العلم منهجاً لهم ، وناصبوا الدين العداء واعتبروه خرافة ، أو جملة من الأساطير ، ومنهم من لم يناصبه العداء ، ولكنه اعتبره شيئاً هامشياً يتخذه الفرد لذاته إن أراد منهجا يطبع سلوكه الشخصى ، ويؤثر فى سره من الباطن إن وجد راحته فى ذلك ، شريطة أن لا يقتحم به على الجماعة عالمها ، وأن لايدخل به على الأمة ميدانها . وهناك جماعة ثالثة شكت فى اتخاذ الأفراد الدين منهجا ، ورأت أنه سلاح دمار يجب أن يحارب ، وأنه أفيون شعوب قصدت (الطبقة البرجوازية) من ورائه تخدير فريستها من العامة والدهماء (البلورتاريا) بقصد النهامها ، وامتصاص دمائها ، وابتزاز ثرواتها ، وجنى ثمرة مجهودها .

وسلاح كهذا ينبغى أن يحارب ، وأن يقف الرجال المتميزون فى وجهه ، وفى وجه حامليه ، وأن يستعينوا بالطبقة المعتدى عليها ، لأنها فى النهاية هى التى ستجنى الثمرة ، وتحصل الفائدة ، حين تكون هى الطبقة القائدة ، إن كان ثم قيادة ، وهى الطبقة المسيطرة إن صح أن تكون هناك سيطرة ،

إنها ستكون الطبقة السائدة ، والمسيطرة حين يتحقق لها النصر على أولئك الذين يتخذون الدين سلاحا وستاراً يحققون من خلاله أغراضهم ، وإن كانت الأخرى إن لم يتحقق النصر للطبقة الكادحة ، فإنها لن تخسر شيئاً فى معاركها ، حين تحتكم إلى ميزان المكسب والخسارة — سوى الأغلال والقيود التى قدر لها أن ترسف فيها فترة من الزمن .

تلك هى طبيعة النقاش المحتدم ، والجدل الظاهر المستعر فى حومة الوغى بين بنى الإنسان على طول المعمورة وعرضها .

والمرء يطيل البصر ، ويردده بين هذا الفريق وذاك ، يتفحص كل فريق ويتأمل كل رأى ، ويراجع كل حجة ، ثم يرجع إليه البصر خاسئاً وهو حسير ، لماذا ؟ ! هل الأدلة متكافئة ؟ هل لا يمكن أن نرجح رأى فريق على آخر ، ولماذا تغيب الحقيقة وسط هذا الزحام والركام ؟

إن المرء لا يملك جواباً حاسماً على هذه الأسئلة جميعها ، إذا هو انصرف عما عرضناه قبل من أسباب تقف وراء هذا الصراع ، وتحول بين البشرية ، وبين حسم القضية التى تشغلها ، إن السبب الحقيقى وراء هذا الخلاف المستعر ، وبين هذا النزاع الذى يصور بعد الشقة بين الآراء المتعارضة هو أن القضية قد وضعت وضعاً خاطئاً ، وطرحت على الساحة من خلال هذا التصور الخاطىء ، وكان ينبغى علينا أولا أن نحرر القضية فى وضعها الصحيح ، بدلا من أن ننتقل إلى القضية المترتبة عليها ، ونجيب على هذا السؤال : هل هناك تعارض حقيقى بين العلم والدين ، وهل يقف العلم والدين على طرفى نقيض بحيث يجب على الإنسان أن يختار أحدهما ، ولا يتمكن من الجمع بينهما ؟

وبعد أن يفرغ المرء من الإجابة على هذا السؤال عليه أن يجيب على سؤال آخر : هل الإنسانية قادرة على صياغة القضية من جديد ، ووضعها

فى وضعها الصحيح ، وهل هى قادرة بعد ذلك على تلافى آثار الماضى ، والتى ترتبت على صياغة القضية صياغة خاطئة ، وهل ستتنازل عن كبريائها ، وتترك غرورها لتسير مع الكون كله فى انسجام تام ؟

« ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء »(١) .

حين تستطيع الإنسانية أن تصيغ القضية من جديد ، وحين تستطيع أن تتلافى آثار الماضى ، وحين تقدر على كبت عواطفها ، ومحاربة كبريائها إنها حين تفعل ذلك تكون قد وضعت نفسها على الطريق الصحيح ، وهى الآن على مفترق الطرق ، فإما أن تستقيم أو تنحدر .

وهذا البحث محاولة لتصوير هذا الموقف موقف العلمانية من الدين ، وموقف الإنسانية من كليهما وتصوير نشأة الخلاف ، وتصوير مصير هذه الأزمة ، وكل ذلك ، وما يتبعه من خلال رؤية خاصة للمؤلف الذى عرض نفسه إلى توفيق الله عز وجل ، ولن يعدم ذلك التوفيق بمشيئة الله ، فالله عند ظن عبده به .

---

(١) الحج : ١٨ .

العلمانية بين الأسم والمسمى

إن الباحث حين يتصدى إلى موضوع مايجب عليه أن يتحدث بادىء ذى بدء حول اسم الموضوع الذى يريد بحثه ، وحول المفهوم الذى يمكن للعقل أن يتصوره عندما يسمع أو يقرأ هذا الأسم .

والعلاقة بين الأسم والمسمى علاقة أكيدة، وإلا فإن المرء لا يستطيع بحال من الأحوال أن يتصور شيئاً من الأشياء ،أو يقف على حقيقة معنى من المعانى، لو أننا افترضنا أن الألفاظ لا تحدد معانيها بدقة، اللهم إلا إذا كان الإنسان سيقف على حقيقة هذا الشىء بنفسه بواسطة حواسه هو ، التى تتصل بالموجود اتصالا مباشراً فتدركه،وترسل به إلى القوة المفكرة، فيتحلله وتقعد له ، ويدرك القانون الذى يربطه ويخضع له ، ثم يفرع عليه من القضايا ذوات العدد ، إن كان مما يقبل التفريع عليه ، وهو حين يفعل ذلك إنما يفعله بصفته الشخصية ، ويكون مجهوده فى النهاية مجهوداً ذاتياً صرفاً .

ولو افترضنا جدلا أن هذا أمر ممكن التحقيق ، جائز الوقوع ، فإن المدرك على هذا النحو يحتاج ضرورة إلى أن ينقل فهمه إلى غيره ، ويوفد إدراكه إلى بنى نوعه ، وذلك لا يكون إلا عن طريق اللغة ، واللغة لا تؤدى غرضها إلا إذا كانت ألفاظها مرتبطة بمعانيها ارتباطاً جيداً .

ومن هنا فإن أى لفظ لا يحدد معناه — بادىء ذى بدء — يلقى بنا ضرورة فى بيداء من العموميات غير المحددة ، وسياحة الفكرية فى صحراء لا يعرف لها حدود ، وهنا يكون مكمن الخطر الحقيقى على العلوم والمعارف .

ومن خلال هذه المقدمة نقول : إنه يجب علينا قبل أن نسير فى هذا

البحث خطوات إلى الأمام ، أن نلقى الضوء على (العلمانية) اسمها ومسماها .

إن هذا الأسم قد عرف فى مجتمعه المعاصر ، وأطلق ليدل على شىء بعينه ، هذا الشىء لم يبتكر فى عالمنا الإسلامى ابتكاراً ، ولم ننشئه نحن إنشاء من العدم ، وإنما ما يدل عليه لفظ (علمانية) عرفه الغرب قبلنا ، وتعرضوا لآثاره قبل أن نتعرض لها ، وعاشوا صراعاته قبل أن نعيشها، إن (العلمانية) بمالها ، وماعليها قد حمل بها الغرب المسيحى ، وشهد الغرب مخاضها على يد قابلة مسيحية ، ورضع لبان البيئة ، وهدهد بين ذراعى فريق منها .

ومن أجل ذلك فإنه ينبغى علينا كى نتعرف على حقيقة الأسم والمسمى، أن نعود لتأملها فى بيئتها الأولى ، وأن نتعرف عليها فى مسقط رأسها ، ومكانها الذى نشأ فيه .

لم يعرف الغرب حين تحدث عن مفهوم (العلمانية) ، ونشط للدفاع عنها ، كلمة فى لغته يمكن أن تترجم فى العربية إلى (العلمانية) بالفتح ، أو (العلمانية) بالكسر ، ولم يقصد الغرب إلى مفهوم أى من هاتين الكلمتين — علمانية — نسبة إلى العالم ، أو — علمانية — نسبة إلى العلم .

ولقد تحدثت دوائر المعارف الغربية عن المصطلح المستعمل فى هذا المجال فى لغة الغرب ، كما تحدثت عن مفهوم هذا المصطلح ، والمعانى التى يصورها للذهن ، وهى قد تحدثت فى الوقت نفسه عن تطور مفهوم هذا المصطلح الذى استعملوه فى العصور المختلفة ، وما يدل عليه فى كل عصر .

والمصطلح المستعمل عندهم هو : « Secnlarism » .

ودائرة المعارف البريطانية تتحدث عن هذا المصطلح «Secularism»

من حيثياته المختلفة حديثاً مجملا ومركزاً فتقول : [هى حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها ، ذلك أنه كان لدى الناس فى العصور الوسطى رغبة شديدة فى العزوف عن الدنيا والتأمل فى الله واليوم الآخر ، ومن أجل مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ « Seenlaism » تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية حيث بدأ الناس فى عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالانجازات الثقافية البشرية ، وبإمكانية تحقيق طموحاتهم فى هذه الحياة القريبة ، وظل الاتجاه إلى الـ « Secularism » يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية[١] .

ويقول معجم أكسفورد شرحا لكلمة « Secular » :

١ ــ دنيوى ، أو مادى ، ليس دينياً ولا روحياً : مثل التربية اللادينية ، الفن أو الموسيقى اللادينية ، السلطة اللادينية ، الحكومة المناقضة للكنيسة .

٢ ــ الرأى الذى يقول أنه لا ينبغى أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية][٢] .

إن ما ذكرناه من المراجع ، وما لم نذكره منها تتحدث كلها عن الكلمة ، باعتبارها تدل على رغبة الإنسان فى أن يعيش محكوماً بنظام

---

(١) Encyc. Britanicav - Ivp. 19 ، والنقل عن محمد قطب (مذاهب فكرية معاصرة دار الشروق ص ٤٤٥

(٢) Ox Ford. Advanced. Leorner's Dic.ofenrrenglish: 78
النقل عن العلمانية ــ سفر بن عبد الرحمن الحوالى ــ دار مكة للطباعة ص ١٢ ، ٢٣

بعيداً عن نظام الكنيسة ، وخارجا عن نطاق الدين ، إنها تدل على رغبة الإنسان فى أن يكون فى سلوكه الجماعى والخاص منطلقاً من فكره هو ، بحيث لا يكون لرجال الدين عليه سلطان ، ولا للدين الذى يمثلونه هيمنة على سلوكه الفعلى ، ولا على تفكيره له أو قوله .

إن الكلمة لا تكاد تخرج عن نطاق التصرفات الخارجة عن نطاق الدين ، وبمقتضاها يريد الإنسان أن يقيم لنفسه نظاماً دنيوياً فى مقابل النظام الآخروى ، أو الذى كان يجعل الأفراد يتعلقون بالآخرة .

أراد الإنسان الأوربى أن تحكم تصرفاته بقانون من وضعه هو فى مقابل القوانين التى هبطت إليه من السماء .

رأى الإنسان الأوربى ذلك واختاره ، وكان له ما أراد واختار ، فحكم تصرفاته بقوانين وضعها هو لنفسه ، وكان مايسمى « بالعلمانية » .

غير أن المفهوم من هذه الكلمة لم يثبت على حال واحدة ، ولكنه قد تشعب شعبتين يتفقان ويختلفان ، إنهما يتفقان فى ضرورة إبعاد الدين عن الحكم والحياة السلوكية بجميع أنواعها وأحوالها ، والحيلولة بين هذه الحياة وبين الدين ، بحيث لا يتمكن الدين من أن يلقى بظلاله على هذه الحياة ، ولا يتمكن رجاله من أن يمارسوا سلطانهم على الراعى أو الرعية باسم الدين الذى يمثلونه .

يتفق الشعبتان اللتان انقسم إليها مفهوم هذه الكلمة فى هذا القدر ، ولكنها يختلفان فى موقفهما من الدين ذاته .

أما الشعبة الأولى ، وقد كانت بارزة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فكانت تعيش على وفاق مع الدين المسيحى ، ولا تعادى رجاله ، بل أنها كانت تحرص على الكنيسة وعلى رجال الدين ، وتضع طاقتها فى

خدمتها ، وكل ماهنالك أن يقر الجميع بالثنائية التى ينبغى أن تكون واضحة أمام الأفراد والجماعات ، وبمقتضى هذه الثنائية يكون للدين والكنيسة مجال تعمل فيه ، وللحياة المدنية ، وعلى رأسها الدولة مجال آخر تعمل فيه من غير أن يكون هناك نوع من التداخل بين المجالين.

وعلى الفرد بمقتضى هذه الثنائية أن يعيش بشخصيتين تنفصل كلا منهما عن الأخرى فى داخل ذاته ، ولا يجد المجتمع الأوربى خطأ فى مثل هذه الحياة ، ولا عنتاً

وحين أقبل القرن التاسع عشر أقبلت معه شعبة أخرى ، أو بعداً ثانياً من أبعاد مفهوم العلمانية ، وهو ذلك البعد أو تلك الشعبة التى رأت ضرورة القضاء على الثنائية ، وإبعاد شعبها من المجتمع ، وهو أمر معقول إذ لايستطيع الفرد أن يعيش طويلا خاضعاً لمبدأ انفصام الشخصية.

غير أن زعماء هذا الاتجاه لم يكونوا أصحاب فلسفة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وإنما هم غريون فى تفكيرهم ، مندفعون فى سلوكهم بدافع الهوى ، والرغبة فى العربدة ، فكانوا بحق أقرب إلى الثورية بقدر بعدهم عن الفلسفة والحكمة .

ولقد كان الطابع المميز لهذه الفرقة أو تلك الشعبة من شعب مفهوم العلمانية ، أنها ترى الانتصار لوجوب خضوع الإنسان فى سلوكه ، وتصرفاته على جميع مستوياتها ، إلى مايصنعه الإنسان من قانون ونظام وليس هذا فحسب ، بل إنه يجب عليه أن يعادى الدين معاداة تامة ، ويقصيه عن حياته بالجملة ، لأن وجود الدين خطر ينبغى على الإنسان أن يتخلص منه ، وله من الآثار السلبية مايعوق حركته فى الحياة ، ولذلك يجب عليه أن يعاديه ويتخذ منه الموقف المتشدد الذى يقصيه عن الحياة ومجالها .

وهكذا تحددت معانى العلمانية على نحو ماكانت عليه فى الغرب مهد نشأتها ، ومسقط رأسها ، ومدرج طفولتها.

ونحن هنا لانريد أن نتحدث عن الأسباب التى ألجأت الغرب إلى اتخاذ هذا الموقف من الدين ورجاله ، لأن سرد هذه الأسباب وتحليلها قد يحتل بمشيئة الله مكانا آخر من هذه الدراسة ، غير أن الذى نريد أن نؤكد عليه هنا هو أن هذه الكلمة Secularism فى بيئتها الأم لاصلة لها بالعلم التجريبى على نحو ما أكدته المراجع ، وعلى نحو ما أشرنا إليه سلفا .

وهى فى الوقت نفسه لاعلاقة لها بالعالم إلا بدرب من التكلف البارد الذى لامعنى له . ولا ضرورة تلجئنا إليه ، إن الكلمة لاتعنى سوى الدنيوى ، أو الشىء الذى يجافى الدين ويقابله .

ولكن لأمر مالايفهم ، نقلت هذه الكلمة إلى العربية ، ودارت على ألسنة كثير من الباحثين على أنها تنسب النظام الوضعى إلى العلم على غير قياس ، فيقال لهذا النظام أو ذاك أنه — علمانى — بكسر العين.

وفضلا عن أن اللغة العربية لاتعرف النسبة إلى العلم على هذا النحو ، فإن هؤلاء الذين نقلوا الكلمة إلى العربية على أنها تفيد نسبة هذه الأنظمة إلى العلم التجريبى ، قد قصدوا — بغير شك — إلى تضليل العامة وإلى سحر أفئدتهم وقلوبهم ، مستغلين هذه الفترة التى وقع فيها تقدم مذهل للعلم التجريبى ، وذلك التقدم الذى أصاب العقول المعاصرة بالدهشة ، وأوقعهم فى أحبولة الفتنة بهذا العلم ، وجعلهم يعتقدون أن العلم التجريبى قادر على حل جميع المعضلات التى تصادفهم سواء منها ما يقبل التجربة المعملية ، أو يتأبى عليها .

لقد استغل هؤلاء دهشة العامة والدهماء ، وفتنتهم بالعلم ، وحكموا

على هذا النظام المجافى للدين بأنه يرتكز على قاعـــدة صلبة من التجربة المعملية ، والناس فى فتنتهم التى أخذت منهم بالألباب ، وفى انبهارهم ودهشتهم اللذين تسلطا على التفكير فأوقفاه .

لم يكن عندهم من الاستعداد الوجدانى ، مايجعلهم يطالبون أحداً بالاستدلال على مايقولون ، بل إن الناس فى حالتهم تلك لم يكن لديهم فسحة من الاستعداد بحيث تتيح لهم مجرد التفكير فيما يطرح عليهم من القضايا .

انتهز فئة من البشر هـــذا الموقف بكل حيثياته ، وترجموا كلمة Secularism إلى العربية على أنها تعنى — علمانى — نسبة إلى العلم ، وهى ترجمة مضللة .

وقد صدق بعض الباحثين من المحدثين حين لاحظ أن هذه الكلمة حين ترجمت إلى اللغة العربية بهذه الترجمة ، لم يكن يقصد منها فى الحقيقة سوى التضليل والخداع .

يقول الأستاذ محمد قطب :

«العلمانية» هى الترجمة العربية لكلمة Seculrism, Secularite. فى اللغات الأوربية ، وهى ترجمة مضللة لأنها توحى بأن لها صلة بالعلم ، بينما هى فى لغاتها الأصلية لاصلة لها بالعلم ، بل المقصود بهـــا فى تلك اللغات هو إقامة الحياة بعيداً عن الدين ، أو الفصل الكامل بين الدين والحياة[1] .

أما الذين يحترمون أقلامهم من الباحثين والعلماء فقد رأوا أن الكلمة

(١) مذاهب فكرية معاصرة — محمد قطب — ص ٤٤٥

— علمانى — حينما نقلت إلى اللغة العربية ، نقلت إليها وهى منسوبة إلى العالم لا إلى العلم .

والذاهبون إلى هذا الرأى ليسوا بالضرورة مؤيدين لسريان هذا المبدأ فى المجتمع المسلم ، أو حتى المجتمع المسيحى ، حيث نجد منهم المؤيد له ، ومنهم المعارض ، ولكنهم جميعاً يتفقون على أن الكلمة فى اللغة العربية منسوبة إلى العالم لا إلى العلم ، والنسبة أيضاً على غير قياس ، حيث إن النسبة إلى العالم (عالمى) ، وليس (علمانى)[1] .

وكأنى بهذا الفريق يشم هذا المعنى من الكلمة فى لغاتها الأصلية .

ونحن وإن كنا نخالف الفريق الأول بكل قوانا ، فنحن كذلك نختلف مع الفريق الثانى ، على أساس أن الكلمة فى لغاتها الأصلية لاتدل على هذه النسبة (النسبة إلى العالم) إلا بدرب من التكلف أو نوع من التأويل .

وعلى أية حال فإننا كنا نود من الفريقين جميعاً أن يبينوا المعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، والمغزى الأساسى من ورائها .

إنها لاتكاد تخرج عن معاداة النظم الدينية أو مخالفتها وابتكار نظم أخرى لها طابع إنسانى . بحيث تحكم سلوك الإنسان وتصرفاته فى جميع المستويات المدنية ، والتى تتصل بالحكم والسياسة ، وبالسلوك والأخلاق ، وبالعلاقات الاجتماعية ، وبالمال والاقتصاد ، وبالتوجية والتربية ، بل وحتى بالذوق والفن والجمال .

(١) من الذاهبين إلى هذا الرأى ا . د محمد البهى فى كتابه (العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق) ، ا . د زكى نجيب محمود فيما نشره ضمن مقالاته فى الأهرام .

إنها على الجملة تنشد اللادينية فى كل شىء .

وكان على الباحثين خصوصاً المنصفين منهم أن يلفتوا النظر إلى المعنى الحقيقى لهذه الكلمة حتى يكون المرء على بصر وبصيرة .

على أية حال فإن الكلمه قد نقلت إلى اللغة العربيـــة ، وتحمس لها أناس ، وعاداها آخرون .

تحمس لها أناس فكتبوا حولها الكتب والمؤلفات ، ولوحوا للعامة ، بل وللخاصة أحيانا أن النظام العلمانى هو فى الحقيقة ذلك الفردوس المفقود الذى يبحث الناس عنه ، إن أرادوا أن يعيشوا عيشة المتعة والخلود ، بل إنه هو « المهدى المنتظر » الذى سيخرج من أوهام التاريخ ، وسراديب الخيال ، فيملأ الدنيا عدلا ونوراً ، بعد أن ملأت ظلما وجوراً .

تحمس المتحمسون لهذا النظام ، وغروا بالعامة والخاصة ، وهيأوا لهم مستقبلا مفروشاً بالورود ، وطريقاً ممهدة ، وحياة لا نصب فيها ولا تعب ، وارتفعت الأصوات . متحمسة « للعلمانية » بمعناها الثورى ، إذ لا يمكن أن يكون هنـاك مجال للمعنى الثانى الذى يجعل الإسلام يتعايش مع « العلمانية » فى وطن واحد بعد أن يحدد له مجال من المجالات يعمل فيه ، ويحدد أمامه مجال آخر يحرم عليه اقتحامه أو العمل فيه ، لأنهم يعلمون أن « الإسلام » بطبعه لا يقبل هذه الثنائية ، ولا يتعامل على أساس منها ، ولذا كان لابد من معاداته ، والثورة فى وجهه ، وأن يكون هذا العداء ، وتلك الثورة هما المفهوم الوحيد « للعلمانية » بعد أن تنقل إلى الشرق .

ويتبين من هذا أن العلمانية فى الشرق لا معنى لها إلا معاداة الإسلام ، والتربص له فى كل مرصد . والعمل على طعنه فى كل مكان يتوهم أن فيه

مقتله ، ولذا فقد كتب الكاتبون من المتحمسين « للعلمانية » فى مجالات عدة كلها تتعلق « بالإسلام » ، وكلها يتصل بمحاربة « الإسلام » ومناصبته العداء .

لقد تناولوا « الإسلام » فى عقيدته ، وتناولوه فى مصادر تشريعه ، وتناولوه فى مجتمعه المثال ، وتناولوه فى رجاله المخلصين الذين سهروا على تراثه ، وفقهوا مبادئه .

ولذا فإن هذا الفريق المتحمس « للعلمانية » ، وللكتابة فيها فى الشرق ، قد تركوا من رصيد كتاباتهم ، ومواقفهم كما ضخما ، بحيث يرى الباحثون أن ما كتبه هؤلاء يقصدون به إلى إبراز محاسن النظام العلمانى ، إذا قيس إلى ما كتبوه ، أو ما قالوه فى مهاجمة « الإسلام » لم يبلغ عشر معشاره .

وأياً ما كان الأمر ، فإن الكلمة حين نقلت إلى العربية ، تحمس لها هذا الفريق بالحماس إلى هذا المعنى وحده من معانيها المختلفة ، وصار معنى « العلمانية » فى الشرق لا يعنى سوى الثورة على « الإسلام » والعمل على إقصائه من حياة الناس العامة والخاصة .

وحين نقلت هذه الكلمة « علمانيـــة » إلى اللغة العربية ، وتحدد مفهومها على هذا النحو ، وجدت طائفة أخرى تثور فى وجهها ، وتردها بقوة أو برفق . وبعاطفة حينا . وبموضوعية فى معظم الأحيان .

وما زال المجتمع الإسلامى الآن يعانى صراع الأيدلوجيات على ساحته . ويكتوى بنار هذا الصراع الذى يصيب بعض الأفراد بالانفصام النكر فى شخصيتهم ، أو التشكيك فيما يقولون أو يفعلون ، والتردد فيما يختارون من الطرق ، أو ما يسلكون من السبل ، ويضرب

الواحد منهم الكف على الأخرى ، وهو يقول متعجبا : (بالله من حيرة على حيرة !!) .

وننهى هذا الحديث فى هذا المقام بملاحظتين نلفت نظر القارىء إليهما :

— ونريد فى الملاحظة الأولى أن ننبه القارىء إلى أننا منذ أن نقلت هذه الكلمة إلى العربية بمفهومها هذا ، ونحن نبحث لها عن حقيقة نظام مستقر ثابت المعالم . مستقيم الدعائم ، واضح الوسائل والغايات ، ويعز علينا هذا المطلب برغم أننا نبحث عنه بدقة من خلال أركانهم الفكرى الذى تركوه لنا ، ومامن مرة نصغى فيها ونسمع إلى مايقولون إلا ونعود كما يعود الجائع فى برية لا يعرف معالمها حين يتسرب إلى آذانه صوت الطواحين ، طواحين الغلال ، فيندفع صوب الصوت يتعب نفسه حتى يصل إلى مصدره ، فيجد نفسه أمام آلة تحدث — جعجعة دون أن يرى طحنا .

إننا نبحث بين ما تركه هؤلاء من الركام فنجده دربا من الجعجعة أو الشقشقة الفارغة التى لاتحمل بين ثناياها عمقا ، ولا تنطوى على رؤية فلسفية محددة .

سنعود بحول الله تعالى إلى هذه الجزئية بعد .

— وفى الملاحظة الثانية : أريد أن ألفت نظر القارىء إلى أننا سوف نستعمل كلمة « العلمانية » رغم أننا غير مقتنعين بأنه من الممكن أن تدل هذه الكلمة على معنى محدد أو مفهوم مستقر أو فلسفة بعينها .

والذى ألجأنا إلى ذلك هو أن هـذه الكلمة قد شاعت وعمت ، وانتشرت بين الناس بحيث تعودتها آذانهم وألفها خواطرهم وعقولهم على نحو ما هى عليه الآن من عدم وضوح الموضوع ، ودقة الهدف .

والإلف أحيانا يفعل بالناس الأعاجيب .

العلمانية نشأتها وأسبابها

تحدثنا حين كنا بصدد تحديد معنى أو مفهوم « العلمانية » ، حول أن « العلمانية » تدل على إتجاهين رئيسين ، وتشتمل عليهما شمولا اقتضاه مفهوم الكلمة الفضفاض العام .

وقد انتهينا فيما انتهينا إليه إلى أن كلمة « العلمانية » على الجملة قد دلت فى بيئتها الأولى على مجموعة النظم التى لا تلتزم بالكنيسة ، وما تفرضه من نظام ، بصرف النظر عن العلاقة التى تكون بين النظامين ، نظام الكنيسة والنظام الإنسانى داخل المجتمع الواحد ، حيث إنه من الملاحظ على نحو ما سبق ، أن هذه العلاقة قد اختلفت من عصر إلى آخر ، أو على الأدق قد اختلفت من بيئة اجتماعية إلى بيئة أخرى ، فبعض المجتمعات قد اتخذت من الكنيسة موقفا معادياً ، فى حين أن بعض المجتمعات الأخرى قد أثرت أن تكون العلاقة بينها وبين الكنيسة يسودها الوفاق والوئام ، بعد تحديد المجال الذى يمارس فيه نشاط كل منهما .

اتسعت الكلمة لهذين الإتجاهين بما لها من طبيعة فضفاضة فى مفهومها ، وهى تتسع فى الوقت نفسه لكل محاولة إنسانية تبرز على السطح لقيادة المجتمع والناس ، ما دامت لا تبيح للكنيسة قيادة الجماعة أو حكم سلوكها ، وتقنين حياتها .

وهذا المفهوم الفضفاض [والذى سجلنا عليه فى نهاية الفصل الماضى مأخذاً مؤداه ، أنه لا يحوى فلسفة بعينها ، ولا يحدد فكرة دقيقة فى قيادة المجتمع والناس ، وتكون واضحة فى تحديد أهدافها ، ووسائلها إلى هذه الأهداف] قد لاحظ عليه بعض الكتاب الغربيين المحدثين أنه حين اعتنقه مؤخراً مجموعة من المفكرين الذين لهم اهتمام بالعلم ، قد أوحى

إلى بعض الناس أنه ينسب إلى العلم والنسبة إليه علمانية ، بكسر العين ، لكنه مما لا يمكن اغفاله ، أن هذا الإتجاه الإنسانى والذى ينشد أن يقنن الإنسان للإنسان ، ويهدف إلى فصل الكنيسة عن الدولة ، لم يكن اتجاهاً لاهوتياً خالصاً ، وهو ليس بالقطع اتجاهاً عقلياً بحتاً ، وإنما هو قد وقع على منتصف المسافة بين الطرفين المتقابلين ، التفكير اللاهوتى على نحو ماصورته الكنيسة ، والتفكير العقلى الطبيعى على نحو ماحدده المعمل (١) .

تاريخ الصراع بين العلمانية والدين :

وقد نظن أو يظن غيرنا أن تنازع البقاء بين « العلمانية » والدين ، والصراع على الوجود بين ماهو كنسى ، وما هو إنسانى ، وتجاذب القمة بين ماصنعه الإنسان باسم الإنسان ، وما ابتكره الإنسان باسم الله ، قد نظن أو يظن غيرنا أن هذا التنازع ، وذلك الصراع ، أو هذا التجاذب وليد عصور متأخرة تكون فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، من غير أن يكون لها جذور فى الماضى ، أو وجود فى فكر الأسلاف .

والحقيقة تخالف هذا كله وتأباه

ذلك أننا حين نتصفح التاريخ الماضى ، سوف نجد أن الإنسان كان يقنن لنفسه فى بيئة اليونان ، وكان يرفض أحيانا أن يخضع لنظم لها طبيعة دينية .

(١) راجع تشكيل العقل الحديث — تأليف : كرين برينتون — ترجمة : شوقى جلال — مراجعه صدقى حطاب — سلسلة عالم المعرفة الكويتية الكتاب رقم ٨٢ — الفصل الأول : ١ — بناء العالم الحديث — الحركة الإنسانية — ص ٢٣ وما بعدها .

وحين جاءت النصرانية وبعث « عيسى » برسالته إلى أمته ، مكثت هذه الرسالة فترة من الزمن يرعاها « عيسى » عليه السلام ، والكتاب الذى أنزل على عيسى منسوبا إلى الله عز وجل هو الإنجيل ، « وعيسى » عليه السلام لم يأمر أتباعه بكتابه الإنجيل فى زمانه ، ولم يعد الله عز وجل أنه سيحفظ هذا الإنجيل من التحريف أو التبديل .

ولم يتح للإنجيل فى زمان عيسى ولا بعده بفترة طويلة ، أن يكتب فى سجل واق له من التحريف ، أو يهيأ له من الوسائل مايحميه من عبث العابثين ، أو تحريف المحرفين .

تناقلت الأجيال إنجيل عيسى محفوظاً بالذاكرة ، وحين يعبث النسيان بالذاكرة ، ويطرأ عليها من الطوارىء مايجعلها غير قادرة على تذكر النص الكامل ، نجد الخيال يتقدم ليؤدى وظيفته ، فيكمل صورة الإنجيل الذى انتقص منه النسيان ، ومن المعروف أن الخيال مهما كان عظيما وقويا ، فإنه لا يستطيع بحال أن يأتى بمادة تشبه المادة الإلهية ، كى يكمل بها النقص الطارىء على الإنجيل .

وهناك عامل آخر يشبه هذا العامل فى إدخال نصوص غريبة على النص الأصلى ، وهو أن حفاظ النص القدامى ، وكانوا يلقون على أتباعهم النص ممزوجا ببعض الشروح والتعليقات ، وكثيراً ما كان يشتبه على الأتباع وتابعيهم الأمر ، فلا يميزون بين ماهو أصيل فى النص ، وبين ماهو دخيل عليه ، فدخلت كثرة لا يستهان بها من الشروح والتعليقات فى نسيج النص الأصلى .

وبزيادة الدخيل — سواء عن طريق الشروح والتعليقات ، أو عن طريق استكمال النص بعد أن أنقصته عوامل النسيان — تعددت الأناجيل وتعدد رجال من القديسين الذين وضعوا أسماؤهم على هذه الأناجيل ،

فكان (إنجيل متى ، ويحنا ومرقص ، وكان إنجيل برنابا) أناجيل تعددت واختلفت بينها الكثير من موضوعاتها ، كما وقع التباين بينها بالزيادة والنقصان ، وأصبحت الأناجيل لاتنسب إلى الله ، وإنما تنتسب إلى البشر وهذا الإنتساب له دلالته ، فالله عز وجل ليس له إلا إنجيل واحد أنزله على « عيسى » هذا الانجيل لم يعد العالم يملك نصه الأصلى لما قدمنا من الأسباب ، والأناجيل الموجودة الآن لاتصور بحال من الأحوال مانزل على «عيسى من رب العالمين (١) .

على هذا النحو عبثت أيدى البشر بالإنجيل المقدس ، فمسخت صورته الأصلية ، وأصبح يعبر عن خليط من الحقائق والأباطيل ، إنه لم يعد خيرا كله ، ولم يعد فى نفس الوقت شراً مطلقاً ، إن فيه المزيج من الخير والشر أفقده طعمه الأصلى ، وأفقده فى الوقت نفسه نسبته الخالصة إلى الله عز وجل .

فمن الخير المستور فى هذه الأناجيل ومن الحق الذى لايمكن إنكاره أشياء كثيرة مبعثرة فى الأناجيل ومنها الإيمان بأن هناك بعث وحساب ، وعرض على رب العالمين ، وحياة أخروية هى الحياة الحقيقية .

ومن الحقائق أيضاً تمجيد العدل ، ورفع قيمة الحق ، وإهدار الظلم وإزدرائه ، والتعريض بالباطل .

(١) حاول بعض العلماء من المتأخرين فى الشرق والغرب ، والذين اهتموا بمقارنة الأديان أن يدرسوا الأناجيل دراسة حرة ، وبينوا ما وقع بين نسخها من التناقض ، كما أن البعض منهم قد اهتم بدراسة الكتب المقدسة على العموم فى العهدين القديم والحديث ، وأبرز التناقض بينها ، وبين العلم ، كما أبرز التناقض بين نسخها — راجع رسالة فى اللاهوت والسياسة — سبينوزا وترجمة د/ حسن حنفى ، والقرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم — دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة — موريس بوكاى .

ومن الحقائق : امتداح كل خليقة ترتفع بكرامة الإنسان : كالرحمة والصبر ، والأمانة والصدق إلى غير ذلك .

ومن الحقائق : أن الله عز وجل أرسل رسلا يبلغون رسلالاته إلى عباده ، من عاداهم ضل وغوى ، ومن اتبعهم هدى إلى صراط مستقيم ، وفى الأناجيل أباطيل . قد أقحمت على النص الإلهى ، لم ينزل بها ملك على عيسى عليه السلام ، ولم يتلقها عيسى بأسلوب ما من أساليب الوحى .

ومن هذه الأباطيل : أنهم يقولون : إن الله ثالث ثلاثة .

ومنها : أنهم يتوجهون بتشريعهم إلى البشر ، ويتسلطون عليهم بنظام خطوه بأيديهم ، ثم قالوا هذا من عند الله .

ومن الأباطيل : ما عرف فى عصور متأخرة بصكوك الغفران ، وهو سند يصدره القساوسة على مسئولياتهم مقابل مبلغ معين من المال ، فيمنحون الجنة بمقتضاه لمن يشترى هذه الصكوك ، ويحرمون عليه النيران ، ويصدرون فى ذلك عن قوة الله كما يدعون .

أكاذيب وحقائق امتلأت بها الأناجيل فأصبحت تعبر عن هذا المزيج ، الذى لا يعرف له طعم أو مذاق .

وعلى الجملة فإن الأناجيل قد استقرت فى نهاية الأمر على هذه الحقيقة: إنها ليست خيراً مطلقاً ، ولا شر خالصاً .

وهذه النتيجة هى خلاصة شهادة الله فيهم وفى أناجيلهم ، ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به »(١) .

وهذه الشهادة لا تعنى أن الله عز وجل يقبل منهم ما هو حق ، ويرد

(١) سورة المائدة [١٤]

عليهم باطلهم وزيفهم الذى أقحموه على الكتاب وادعوا أنه من عند الله

إن الشهادة لا تعنى إلا تقرير الواقع الذى فعلوه .

أما قاعدة القبول عند الله فهى أمر آخر .

إن الله عز وجل لا يقبل هذا العبث بكتابه ، وإنما الذى يقبله الله عز وجل هو أن ينصاع عباده ، لكل ما نزل من عنده ، ويؤمنون به بجملته . إنه لا يقبل أن يؤمن جماعة ببعض الكتاب ، ويكفرون ببعض « قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم »[1] .

على أية حال فلقد كانت هذه بعض صفات الأناجيل وأحوالها عمل بشرى كامل ، أوشبه كامل .

وقد نقل إلى أوربا على هذا النحو يراه الأوربيون ديناً قد نزل من عند الله ، وهو فى الحقيقة كتاب محرف قد دخل عليه البشر بأهوائهم وأغراضهم .

ومن يوم أن دخل هذا الدين إلى أوربا ، وحكم تصرفات الجماعات والأفراد ، وهو دين محرف من صنعة البشر ، ربما خالطه بعض الحقائق المنزلة من عند الله .

ونتهى من هذا العرض السريع إلى أن الغرب لم يحكم يوما بمنهج الله عز وجل ، وإنما الصحيح أنه قد حكم فى فترة من الفترات تمثلها العصور الوسطى بما كتبه البشر بأيديهم : وتساط البعض على البعض باسم الله والله من ذلك براء ، وأوهم البعض البعض بأنهم إنما يحكمونهم من خلال الدين المنزل ، والدين بعيد عن ذلك كله بعد الأرض عن السماء .

---

(١) سورة المائدة [٦٨]

تلك هى فى عجالة عاجلة ، صورة تصور نظام الحكم فيما قبل عصر النهضة ، لقد حكم الغرب فى عصور اليونان والرومان بنظام بشرى مجرد ، وحكم العصور الوسطى بنظام بشرى مغلف باسم الدين .

وهذا النظام الأخير هو الذى امتد حتى عصر النهضة ، وهو الذى ثارت عليه الشعوب ، ولفظته من حياتها الاجتماعية ، وتمردت عليه بكل قوة .

ومرة أخرى نقول: إن التمرد الذى ظهر فى صورة « العلمانية » بمعناه الواسع كان ضد الكنيسة ، ولم يكن ضد الدين على المعنى الحقيقى للدين .

عوامل ظهور العلمانية :

و « العلمانية » مهما كانت قيمتها تعتبر ظاهرة إنسانية .

والظواهر الإنسانية يمكن أن تعلل من حيث نشأتها ، ويمكن للباحث أن يقف على أسبابها وعوامل ظهورها .

غير أنه من الخطأ المحض ، والذى وقع فيه أحياناً بعض المفكرين ، القول بأن الظاهرة الإنسانية يمكن تعليلها بعامل واحد ، كما تعلل الظاهرة المادية بعامل واحد .

والذى نراه أن الظاهرة الإنسانية حين يراد تعليلها لابد من ملاحظة جميع العوامل المتداخلة والتى يؤدى جميعها إلى وجود الظاهرة ، وفرضها على الواقع المحسوس .

ومن هذا المنطلق نقول : إن هناك عدة عوامل قد ساعدت فى نشأة « العلمانية » ، وهناك عوامل أخرى تقع من « العلمانية » موقع العلة من المعلول : والسبب من المسبب .

هناك إذن فى تعليل ظهور « العلمانية » عوامل مباشرة ، وعوامل مساعدة ، ومجموع هاتين الطائفتين من العوامل ، قد أدى إلى ظهور « العلمانية » الواقع الأوربى المحس والمعاش .

وسنحاول أن نذكر بعض هذه العوامل مركزين على أهمها :

١ — وأول هذه العوامل . مسلك الكنيسة ، وطرائق رجال الدين المسيحى ، والتصرفات الصادرة عن الكنيسة ، وعن رجال الدين باسم الله

فى فترة من فترات التاريخ الأوربى وجد الإنسان أنه فى حاجة إلى أن يعتمد على ذاته فى التقنين لذاته ، وأن يتخذ وجوده هو أساساً لكل وجود ، إنه رأى أن يبتعد عن الله ، ويعتمد على ذاته حينما سمع من رجال انتسبوا إلى الكنيسة زوراً ، وتحدثوا عن الله بكلام ابتكروه ، ونسبوا إليه تشريعا كانوا هم المصدر الأساسى له بقصد تحقيق مصلحة شخصية ، أو مكانة اجتماعية مرموقة بين المجتمع والناس . سمع الإنسان هذا كله وغيره كثير باسم الله ، وهو يرى أن هذا لا يمكن أن يصدر عن الله عز وجل ، وإذا صدر عنه فان الدين الذى يشتمل على ذلك كله لم يعد صالحاً لضبط حركة الحياة .

رأى الإنسان أنه فى حاجة إلى الاعتماد على ذاته . والابتعاد عن الله حين رأى بعينيه لوناً قاسياً من الظلم الاجتماعى لم يشهد التاريخ مثله يرتكب باسم رجال الدين ، الذين يؤكدون أن هذا الظلم إنما يجرى فى إطار قوانين السماء الصادرة عن الله فنفض يده من هذا القانون ورأى أن يقنن لذاته .

رأى الإنسان أن يعتمد على ذاته وأن يبتعد عن الله حين رأى ذلك اللون من الإرهاب الفكرى الذى يحرم على الإنسان أن يفكر بحرية ، أو أن يمتحن الظاهرة ويجربها بقصد استجلاء حقائق القوانين الكونية ،

والوقوف على أسرارها حتى ينتفع بها النوع البشرى بشكل أكثر ملاءمة وكان هذا الإرهاب يرتكب بوحشية على يد رجال ينتسبون إلى الدين زوراً وبهتاناً ، ويدعون أن ذلك يرتكب فى إطار قانون عام صادر عن الله وخاضع لمشيئته وإرادته .

اعتمد الإنسان على ذاته ، وابتعد عن الله حين رأى أنه مقهور اجتماعياً ، مقهور سياسياً ، مقهور فكرياً ، إنه مقهور فى جميع جوانبه ومناصبه العامة والخاصة ، فمن حقه إذاً أن يعتمد على نفسه ، ويتبعد عن مصدر القهر والطغيان ، فكانت الفلسفة الإنسانية ، وكان التفكير الإنسانى بجميع مظاهره الذى تبلور فى أعظم صورة على يد الفلاسفة فى فرنسا وألمانيا(١) .

إننا هنا لانريد أن نبرر ، وإنما نريد أن نوضح .

إننا لا نريد أن نبرر للإنسان ابتعاده عن الله ونبذه للدين خلف ظهره ، وإنما فقط نريد أن نوضح ظاهرة تاريخية قد وقعت على هذا الكوكب فى حقبة ما من حقب التاريخ الإنسانى الطويل

إننا لا نريد أن نبرر لأن المسألة لا تحتمل التبرير ؛ ذلك أن المنطق المستقيم والفكر المنضبط يؤكدان جميعاً أن الإنسان فى مثل هذه الظروف لا يجوز له أن يبتعد عن الله لمجرد أن هناك شرذمة افترت على الله ونسبت إليه ما لم يقله ؛ فى نفس الوقت الذى يعلن الله عز وجل أن مثل هؤلاء القوم الذين افتروا عليه سوف يوقعوا عليهم غضبه ونقمته : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل مما يكسبون » .

---

(١) راجع تفاصيل هذا الإرهاب بأنواعه ، ونماذج من التاريخ المصورة له فى (الإسلام والمجتمع المعاصر د/ محمد البهى) ، (مذاهب فكرية معاصرة — محمد قطب) .

فى مثل هذه الظروف لايجوز للإنسان أن يبتعد عن الله، وإنما الجائز المقبول هو أن يبحث عن طريق صحيح يستطيع أن يأخذ عنه مانقل عن الله من غير حظر أو تشويش (١) .

وهنا سؤال يفرض نفسه بعدماذكرناه من استشعار الشعوب الأوربية الظلم الواقع عليهم من الكنيسة ورجالها .

وهذا السؤال هو : هل صحيح ما استشعرته هذه الشعوب من مظالم وهل صحيح مانسبوه إلى الكنيسة ورجالها من مخالفات أوقعوها عليهم باسم الدين مستمدين قوتهم من الله رب العالمين ، وهل بالإمكان أن نجد لذلك واقعاً تاريخياً يعبر عنه ويؤيده ، وهل . . . وهل ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التى تدور كلها حول مفهوم واحد وتتساءل عن موضوع بعينـــه .

والكاتب الذى يتصدى لهذه الحقبة يشعر بالمرارة تملأ نفسه ، وهو يجيب بالإيجاب على ماطرح من الأسئلة، وعلى نظائرها التى لم تطرح بعد، وتنتظر دورها كى تطرح على الساحة وتتعلق بالجواب .

إن رجال الدين فى أوربا قد ارتكبوا من الفظائع والمنكرات قدراً تسلطت آثاره على الحياة فأوقفتها ، وعلى الإنسان الفرد فسلبته إنسانيته ووجوده ، وعلى الجماعة من بنى البشر فحددت نشاطهم فى أضيق الدوائر وعلى الجملة فلقد تمكن رجال الكنيسة من أن يلفوا الحياة والأحياء بستار كثيف من الظلمات يتلوه ستار حتى عاش المجتمع الأوربى عصره الوسيط فى ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج الواحد منهم يده ليضعها على

(١) راجع عقيدتنا وصلتها بالكون والإنسان والحياة — الصفحة الأولى ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥م — د/طه الدسوقى حبيش — ٣٣، ٣٤

سبب من أسباب الحضارة لم يكن يراها ، ولا يرى السبب الذى يريد أن يضع يده عليه .

يجد الباحث نفسه يشعر بالمرارة ، ولا يملك إلا أن يجيب بالإيجاب على ماطرح من الأسئلة ومالم يطرح .

إن القساوسة ورجال الدين المسيحى على العموم ، قد تسلطوا على الكون المادى بطائفة من الخرافة ، كما تسلطوا عـــلى الكائنات الحية بأمثالها، وأحالوا بين الإنسان وبين الوقوف على قوانين الكون، وأسبابه التى حكمه الله بها ، واعتبروا أن مثل هذه الأبحاث الكاشفة أنواع من الكفر يعاقب الله عباده بسببها .

وفى هذا المجال نصبت محاكم التفتيش لتبحث وتحكم بالكفر وإهدار الدم على كل من يدعى أنه قد هيء له الوقوف على سر من أسرار الله فى كونه .

ولقد سجل التاريخ مافعلت الكنيسة بعلماء رواد فى أوربا من القتل والحرق ، لا لشىء إلا لأن بعضهم قال : إن الأرض كروية ، والبعض الآخر بحث فى النجوم والأفلاك ، إلى غير ذلك من العلماء الذين هيأ الله لهم الوقوف على سر أو مجموعة من الأسرار التى هى قوانين الكون الذى خلقه الله محكوماً بها .

ولو أن الأمر سار على ما تهوى الكنيسة ورجالها لتجمدت الحياة ، ولتوقف نشاط الإنسان وتقدمه .

وفى مجال الأفراد الذين تتألف منهم الشعوب الأوربية أباحت الكنيسة بل أقرت وشجعت النظام الطبقى،فكان فى أوربا طبقة الإقطاع الظالمة ومنهم رجال الكنيسة ، وطبقة الفلاحين والزراع الذين يعملون فى إقطاعيات رجال الدين ، ومزارع الإقطاعيين .

وحاول رجال الكنيسة أن يفلسفوا هذا الموقف كي يجبروا الفلاحين على الرضى بأوضاعهم فحقروا الحياة الدنيا ومتعها، وقالوا: إن المهم هو ما يلقاه الإنسان من جزاء في الحياة الأخروية، ولا يلقى الإنسان جزاءه في الآخرة إلا بحرمان الجسد والرضا بالواقع، حتى ولو كان الواقع ظالما، ذلك أن هذا الواقع مراد لله عز وجل، وتحويله أو محاولة تغييره ولو إلى الأحسن فيه مخالفة لرضى رب العباد.

وهكذا حرمت الكنيسة ورجالها على المظلوم أن يتحرك لرفع الظلم عنه، وأجبرته على الخنوع والخضوع، وسلبت حميته وغيرته باسم الله، بل إنها قننت له ذلك الخنوع والخضوع، ووضحت أمامه أن الإنسان كلما كان مغرقاً في الخنوع كان أقرب إلى رب العالمين، وعليه: ف(إن من خدم سيدين أفضل عند الله ممن يخدم سيداً واحداً، ومن ضرب على خده الأيمن فعليه أن يدير خده الأيسر ليضرب عليه هو الآخر إن أراد لنفسه عند الله مكانة ممتازة).

هذا في مجال السلوك.

وفي مجال التفكير لا يجوز للفرد أن يفكر فيما يريد أن يفكر فيه، بل هو إذا أراد أن يفكر، فإنه لا يفكر إلا فيما أراده له رجال الكنيسة.

وهناك ما هو أكبر من ذلك متعلقاً بالافراد، إن الفرد لا يولد ولادة صحيحة، إلا إذا عمده رجال الدين، ولا يموت موتاً صحيحاً إلا بحضور أحد رجال الدين مندوباً عن الكنيسة، وما بين الولادة والموت لابد وأن يكون تحت رعاية رجال الكنيسة.

وعلى الجملة: إن الأفراد بذاتهم لا وجود لهم. ووجودهم كله إنما هو من داخل رجال الدين، وتحت رعاية الكنيسة الظالمة الجائرة.

وفي الجانب السياسي، فإن رجال السياسة، ورؤساء الدول لا بقاء لهم في مقاعدهم إلا بموافقة رجال الكنيسة، فالحاكم يبقى في كرسي الحكم متربعاً على العرش مادامت الكنيسة راضية عنه، فإذا ماغضب عليه البابا لأسباب شخصية لا علاقة لها بالحكم ولا بالقيادة نبذته العامة. وأقصته عن منصبه، وأحلت محله آخر ترضى عنه الكنيسة ورجالها[1].

مفاسد ومفاسد عمت الحياة والأحياء، وتوقفت بسببها الحياة وخسر بسببها الأحياء، وكان أول الخاسرين هو الإنسان الذي خسر إرادته وتفكيره، وخسر حضارته وتقدمه، إنه على الجملة خسر إنسانيته.

وكانت الشعوب الأوربية محقة كما قلنا في ثورتها ضد الدين الذي ابتكره الإنسان الظالم لنفسه ولبني نوعه، ونسبه إلى الله زوراً وبهتانا، كان عليهم أن يثوروا في وجه هذا الضلال ورجاله، وكان عليهم أن يعلموا أن هذا ليس من عند الله، وأن الدين الصحيح لا يصادم فكرة الإنسان الصحيحة.

ومرة أخرى نقول: إننا نعتذر عن هذه الشعوب حين ثارت، بل كان يجب عليها أن تثور.

ولكننا لابد وأن نشير إلى خطئها هنا.

ذلك أنها عند ما ثارت، لم تحدد لنفسها الهدف والغاية، كان عليها أن تثور في وجه النظام الذي ظلمها كي تحطمه. وتقف به عند الذي ينبغي أن يقف عنده، وتعتبر ذلك هدفا لها، وتحدد الوسائل الصحيحة التي

---

(١) راجع التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢ — ٨٩٧ هـ، ٧١١ — ١٤٩٢ م) تأليف عبد الرحمن علي الحاجي — الطبعة الأولى — دار الاعتصام — ص١٩ وما بعدها، ومذاهب فكرية معاصرة محمد قطب ص ٤٤٨ وما بعدها مرجع سبق ذكره.

تصل بها إلى هذا الهدف ، ولكنها حين ثارت حددت لنفسها هدفا خاطئاً ، حددت لنفسها الإلحاد هدفا ، والكفر غاية . ومحاربة الله عزوجل نهاية تريد أن تنتهى إليها ، بصرف النظر عن الوسيلة وبغض الطرف عن البديل الذى تريده أو يفرض عليها كى يحل محل الدين الذى نبذته .

إننا نوافق الشعوب الأوربية حين ثارت ، ونعتذر عنها ، ولكننا نخالفها كل المخالفة كما يخالفها غيرنا حين نبذت الدين جملة ، حتى ولو كان الدين صحيح النسبة إلى الله .

إن هذا الحظ ، أو ذلك المنهج الذى انتهجته الشعوب الأوربية منهج غير مقبول ، وحظ غير واضح المعالم .

ولاعذر لهم حين ارتكسوا وهم يحددون أهدافهم .

إنهم قد ارتكسوا بالفعل لأنهم عادوا إلى حياة اليونان والرومان فأسسوا عليهما وانطلقوا منهما ، وأخطأوا ولاعذر لهم فى الخطأ ، ذلك أن الله قد هيأ لهم من الأسباب مايجعلهم يتمكنون من الإطلاع على الدين الصحيح فى أسبانيا وصقلية ، وغيرهما من الأماكن التى التقى فيها المسيحيون بالمسلمين . فوجدوا ديناً ليس فيه هيأة إكليروس ، وليس فيه تسلط على العقول والإرادات ، وليس فيه تمجيد للظلم ، أو عون للظالمين ، وقهر للمظلومين ، وليس فيه عرقلة للحياة ، بل فيه دفع لها ، وليس فيه قتل للأحياء ، أوشلل لرجولتهم ، وإنسانيتهم ، بل فيه تربية لهم على مستوى رفيع ، تربية للجسم ، وتربية للعقل ، وتربية للنفس والروح ، تربيـــة للإنسان كله ، ودفعه بكليته إلى البحث فى الكون محكوماً بشريعة رب العالمين .

هيأ الله للشعوب الأوربية أن تطلع على هذا الدين الجديد ، وإنه فى أخص خواصه صحيح النسبة إلى الله عزوجل ، وكان العقل يقتضى ،

والمنطق يفرض عليهم أنهم حين يفرغون من دين مزيف يتجهون فى الوقت نفسه إلى دين صحيح ، ولكنهم لم يفعلوا .

على أية حال ، فإن فساد الكنيسة ورجالها كان سبباً قوياً من أسباب ظهور « العلمانية » فى أوربا ، بصرف النظر عن الخطأ والصواب فى تحديد الوسائل والغايات .

٢ — وإلى جوار هذا السبب المحـــلى الذى أشرنا إليه ، سبب آخر خارجى ، ولكنه لايقل أثراً عن السبب الذى ذكرناه فى تحريك الغرب وإشعارهم بظروفهم القاسية ، وعصرهم الذى تلفه الظلمة .

وهذا السبب يتمثل فى الحضارة الإسلامية المجاورة للغرب ، بل التى تداخلت معه على مستوى البيئتين الطبيعة والاجتماعية .

وقد يبدو اعتمادنا على هذا السبب غريباً — بادى الرأى — ذلك أن المنطق يفرض علينا ، والتفكير السليم يقضى بأن الحضارة المستقيمة حين تشرق على أمة استسلمت لعصر الظلمات ، إنما تشرق عليها بنورها هى ، وتضمها إلى أحضانها ، وتوفر لها المناخ الملائم حتى تنمو فى ظروف صحية وتترعرع فى جو من الدفء الذى يزيدها نضارة وحسنا .

نعم قد يبدو اعتمادنا على هذا العامل غريباً ، وخاصة حين نرقب الأحداث : فنرى النتائج لم تكن منبثقة ، أو على الأصح مرتبطة بالعقيدة الإسلامية ، وتصورها الصحيح للحياة والكون والإنسان ، ولم تكن مساوقة — فى جانبها العملى على الأقل — لما عرفه — المسلمون من تطبيقات فى مجال الكون والحياة والإنسان .

وهذا التحفظ على هذا النمو لايلغى اعتمادنا على العامل الذى ذكرناه وإنما يضيف إلى الدراسة عبئاً جديداً ، وهذا العبء يتركز حول مايبغى

أن نشير إليه من الكشف عن العوامل التى أدت ، وتؤدى بالغربيين فى الأمس ، واليوم إلى الابتعاد عن الاسلام ، حتى ولو كانوا يرونه فوق الشبه والتى تحملهم على معاداته ، رغم أنه قد استيقنته أنفسهم ، وعلموا أنه الحق الذى ينبغى أن يتبع دون سواه من النظم والتشريعات .

وسنحاول أن نتجه من الآن بمشيئة الله إلى تحليل هـــذا العامل ، وتحليل العوامل الأخرى التى أدت إلى مجافاة الغربيين له ، واعتراضهم عليه ، واستكبارهم على مبادئه وتعاليمه برغم أنها هى السبب الحقيقى وراء كل تقدم ملموس فى الغرب .

بينما كان الغربيون فى عصور الظلام كان الإسلام قد أطلق طاقات المسلمين ، ورفع عن كواهلهم كل حرج ، ودفعهم بقوة إلى كل ميدان يمكن لجهودهم أن تؤتى ثمارها فيه ، وأعفاهم من كل مجال يمكن أن يقع بينهم الجدال فيه ، من غير أن يكون لهذا الجدال ثمرة ومن غير أن تترتب عليه فائدة مرجوة .

بهذه الدفعة المنظمة ، اندفع المسلمون بعد أن شرع الله لهم نظاماً اجتماعياً وعقدياً يحميهم من كل ضلال ، ويحفظهم من كل فكر غاز[1] .

وقد أكد التاريخ أن المسلمين — برغم قلتهم — قد فتحوا على العالم الشرقى نوافذ من النور ، وانتشلوهم من بحار الظلمات ، وأطلقوا طاقاتهم من كل قيد ، ورفعوا عن كواهلهم الأوزار الثقال ، والتى كانوا ينوؤن بها حين يسيرون فى اتجاه التقدم ، بقدر ما ينأون بها عن ركب الحضارة الذى حيل بين هذه الشعوب وبينه .

وكان لهذه الشعوب حضارات قبل أن يأتى إليهم الإسلام ،

(١) راجع محمد أسد (الإسلام على مفترق الطرق) نقله إلى العربية عمر فروخ .

بوهج نوره الساطع وأصبحت حضارة الإسلام وجهاً لوجه مع الحضارة الرومانية ، ومع الحضارة الفارسية ومع الحضارة المصرية القديمة . ومع حضارات فينيقيا وبابل إلى آخره بل إنه قد استجاب لنفسه حضارة اليونان ونقلت على يد ذويه ، وبمعرفتهم إلى أرض الإسلام فى حركة من الترجمة لم يشهد التاريخ لها مثيلا .

وتعايش الإسلام مع هذه الحضارات جميعاً .

والقاعدة العامة التى يكاد يجمع عليها المؤرخون وعلماء الاجتماع أن الحضارة الوافدة إلى حضاره أخرى تذوب فى الحضارة الأصلية بمرور الزمن ، وتبقى الحضارة الأصلية بالوطن المعين بعد أن تزدرد الحضارة الوافدة شائخة بكل صفاتها ومميزاتها .

والإسلام باعتباره وافداً على هذه الحضارات جميعا طارئاً عليها ، كان من المحتوم المعقول فى نفس الوقت أن تبتلعه إحدى هذه الحضارات أو جميعها على الأقل .

إلا أن المفاجأة التى أذهلت الجميع أن حضارة الإسلام جاءت على عكس تلك القاعدة فابتلع الإسلام هذه الحضارات جميعا . وبقى الإسلام بصفائه وخواصه ، وبقى حملة الإسلام بخواصهم وصفاتهم فى البيئات والمجتمعات التى وفدوا إليها .

وهذا لون من الإعجاز المعجز ، ودرب من خوارق العادات — عادات القواعد التى تحتكم إليها بعض الظواهر الاجتماعية —

وتبدو خواص الإسلام أكثر ما تبدو حين تسلط عليها حرارة الاعتداء العام التى تهدف إلى النيل من الدين أو المتدينين .

وهذه الملاحظات قد لاحظ بعضها صاحب كتاب « مجانى الإسلام »

وسجلها فى فصل خاص ، أو فصول متعددة من كتابه فهو يقول مثلا بعد كلام طويل [... فالروابط الدينية التى تجمع بين شعوب الإسلام تظل بالغة القوة دائماً أى تظل أقوى مما يتصور عموما ، فهذه الروابط تعين فى حياة هذه الشعوب العامة . كما فى حياة المؤمنين الخاصة ، شعور تضامن فى المصائر لم يكن للأمم الأوروبية عهد به قط ، أو أن هذه الأمم عادة لا يكون لها عهد به](١) .

وظل المؤلف يذكر من الآثار التاريخية الحديثة أمثلة ذوات عدد ، يؤكد بها سريان وحدة الشعور بين المسلمين على اختلاف الزمان والمكان وتأثيرها القوى بأسلوبها الحضارى ، الأمر الذى يؤكد طغيان الحضارة الإسلامية على غيرها ، برغم أن الحضارة الإسلامية هى الطارىء الحديث وغيرها ليس كذلك .

وانتهى الكاتب إلى تنبيه ذوى العجلة من الباحثين والكاتبين ، إلى أن هناك بعض الظواهر التى قد تدل — عند النظرة الأولى — على شىء من التفسخ فى وحدة الشعور ، أو شىء من الوهم فى فاعلية الإسلام ، وهى فى الحق ليست كذلك .

يقول منبهاً بعد أن ذكر ظاهرة تعدد الأحزاب السياسية والاتجاهات المذهبية على [أن هذه الانقسامات على هذا النحو فيها ولاشك نوع من التدافع الظاهرى غير أنه يجب أن نعتقد أن هذا اللون من التدافع ، وهذا الشكل من الانقسامات إنما تدل جميعها على أن الأمة الإسلامية قد اتجهت بقوة إلى البحث عن أسلوب جديد يؤلف بين شعورها الممزق أكثر مما يدل

---

(١) مجالى الإسلام . حيدر بامات ، ج . ديقوار ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ط عيسى البابى الحلبى وشركاه - القاهرة - ١٩٥٦ - ص ١٦

على مظاهر الفرقة والتشتت](١)

ولم يكن « حيدر بامات » وحده فى مجال تأسيس الفكرة وإنما تبعه غيره من الكتاب والباحثين .

ولقد ذهب إلى الفكرة نفسها مع شىء يسير من التعديل الأستاذ غوستاف لوبون أثناء حديثه عن العروق وتوارث الصفات ، وعمل السلالات فى الصفات الخلقية والأخلاقية .

ولقد رأى العرب الفاتحين للبلدان غير العربية لم تبتلع الحضارات آثارهم ولم تقض على صفاتهم برغم أنهم قلة ، وأن الحضارات التى جاءوا إليها كانت مغرقة فى القدم .

وقد اختار الحضارة المصرية القديمة واعتبرها مثلا قويا يؤكد ما ذهب إليه ويجليه(٢) .

على أى حال فإن الحضارة الإسلامية حين استكملت نضجها اندفعت بحماس بالغ إلى العالم شرقاً وغرباً وعم نورها بلاد آسيا وأفريقيا وأوربا وسيطرت هذه الحضارة بجملتها على الدوائر الثلاث التى تحيط بالإنسان ، لقد سيطرت على العقيدة فى داخله وعلى التشريع الذى يحكم تصرفاته الخاصة والعامة ، وعلى علاقته بالكون والأحياء .

إن هذه الحضارة بصفاتها تلك قد اضطلع عليها الأوربيون واحتكوا

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٨

(٢) راجع غوستاف لوبون نقله إلى العربية عادل زعيتر — عيسى البابى الحلبى .
الفصل الثانى من الباب الأول ص ٦٠ وما بعدها

بها فى مراكز مختلفة . واطلعوا عليها فى الأندلس، واطلعوا عليها فى صقلية كما تسنى لهم الاطلاع عليها من خلال الحروب الصليبية[1].

فالأندلس قد شهدت فترة من التاريخ لم تشهد مثيلتها من قبل ولا من بعد .

وهذه الفترة هى تلك الفترة التى أقبل العرب فيها بتسامحهم وحضارتهم إليها ، حيث أراد العرب الفاتحين للأندلس أن تكون نداً بحضارتها وتقدمها للحضارة التى كانت مزدهرة فى الشرق .

على أنه مما لاشك فيه أن كلا من حضارة الأندلس فى الغرب ، وحضارة الدولة الإسلامية فى الشرق ، وقد أسس على مبدأ من الإسلام ذاته وشيد بيد المسلمين .

والمتأمل فى حضارة الأندلس القديمة يجدها قد سارت فى اتجاهين فى وقت واحد كى تلبى حاجة الإنسان المادية التى تمتع جانبه المادى ، وتلبى حاجته المعنوية التى تمتع عقله وروحه .

وفى الجانب المادى الذى يشمل شئون الحياة المحسوسة ، شهد الجميع للأندلس بجمال الطبيعة وازدهارها الفن المعمارى ، كما شهدوا لها فى نفس الوقت بتقدمها فى الجانب الزراعى ، بتنشيط مائيها من غلات ، واستجلاب مايلائم مناخها من الزرع والثمار كما شهد الجميع لها بتقدمها فى مجال التعدين ، وفى مجال الثروة الحيوانية .

ولقد أسس على هذه المجالات والتقدم فيها نوع فريد من الصنائع ،

(١) اهتم بتفصيل هذه الفكرة أحد طلابنا فى بحث له حصل به على درجة الدكتوراه وهو الدكتور / مصطفى جسرها وكان بحثه تحت عنوان در معابر الفكر الفلسفى إلى المجتمع الاور ، كلية أصول الدين - القاهرة.

والتصرف فى المواد الخام ، وتحويلها إلى مايلائم الإنسان ، ويلبى احتياجاته ، ويتناسب مع دوام رقيه ورقى ذوقه .

وكان لابد لهذه البيئة بعد هذا التحول الضخم أن تنشىء لوناً من العلاقات الراقية وتقيم جسوراً من الصلات بينها وبين الأمم الأخرى .

ودخلت أسبانيا فى علاقات تجارية داخلية وخارجية ضخمة عززت اقتصادها ، ورفعت من دخولها .

غير أن هذا الجانب المادى بما فيه من تقدم ملموس لا ينكر ، ليس هو فى الحقيقة أهم الجوانب المشهودة لعرب الأندلس ، وإنما الجانب الذى يحمد لها بحق هو المتمثل فى صرح العلوم الضخم ، والنشاط العقلى والغنى اللذين انفردت بهما أسبانيا فى ذلك الوقت من بين الدول الأوربية جميعاً .

وكان لهذا النشاط العقلى المعزز بالنشاط المادى ، والمحلى بحلل الجمال فى كل مكان ، أثر فى اجتلاب العقلية الأوربية من كل صوب وحدب .

ولقد شهد المؤرخون من الأوربيين للأندلس بازدهارها ، وندموا غاية الندم على هذا الخروج المهين ، بعد أن تمكن الغربيون من مقاليد الأمور ، وأخرجوا العرب الذين تسامحوا معهم ، وتقلوا الحضارة إليهم مشيعين بحقد البابوات ، وطغيان بعض الساسة الذين انحرفوا فى تيارهم ، تاركين وراءهم آلاف الجثث من إخوانهم العرب الذين أهدر القساوسة دماءهم وروايا الأرض التى شهدت بأن هذه الدماء إنما هى شقيقة العرق الذى خالط التربة حتى تثمر ، وجرى فى خلايا الأشجار حتى تبعث بشذى عبيرها إلى جميع الدنيا من أقصاها إلى أقصاها .

ندم المؤرخون الغربيون وارتفع نحيبهم وهم يؤرخون لهذه الفترة ، لا حزناً على المسلمين الخارجين بجزاء سنمار ، ولا ألماً على هذه الجثث التى احتضنتها بشوق تربة الأندلس التى تدين لها بالولاء ، ولا تعاطفاً مع

هذه الدماء البريئة التى سالت على تربة الأندلس من أجسام طاهرة نشطة لتعانق حبات العرق التى أفرزتها تلك الأجسام، يوم أن كانت تتعامل مع هذه الأرض لتقيم عليها منارة الحضارة فى أوربا، لم يألم الأوربيون على هذا أو ذاك، ولم يشدهم هذا الموقف أو ذاك، وإنما كانت آلامهم بسبب تلك الحضارة المادية، والتناغم العجيب بين آثارها اللذين أمتد إليهما حقد البابوات وطغيانهم فدمراهما أو شوهاهما، كما امتد إلى صانعيهما. فأعمل فيهم يد الظلم، بدلا من كلمات الشكر التى تعبر عن العرفان بالجميل.

يقول صاحب كتاب «مجالى الإسلام» ناقلا ومعلقا بعد كلام له طويل يشرح فيه حضارة الأندلس: [قال مسيو ليفى بروفنال: «عندما دخلت قرطبة فى النصرانية بعد أن تخلصت منها نحو خمسمائة سنة كان هذا الدخول لهذه المدينة بداءة دور طويل من الانحطاط آلت فيه مبانى العهد الإسلامى إلى الخراب أو هدمت فسحا فى المجال لأبنية جديدة على الطرز الحديثة، والمسجد الكبير وحده، وهو الذى حول إلى كتدرائية بوحى من إنتقال العذراء واسم من القديسة مريم الكبرى، فاز لهذا التخصيص. بألا يعانى عوادى الزمن. ولا سيما أذى الناس، ومع ذلك فقد شوه منظره العظيم بقرار مجلس الرهبان الذى قضى فى سنة ١٥٢٣، أن يقام الخورس الأكبر والبيعة الكبرى فى القسم المركزى منه على الرغم من اعتراض المجلس البلدى ... ».

ولما شاهد شارلكن هذا التحويل قائلا: «لو كنت أعرف ما أردتم صنعه ما تمكنتم منه، وذلك لأن ما صنعتموه هو من الآثار التى يمكن أن ترى فى كل مكان، وأما ما كنتم حائزين له فلا يوجد له مثيل فى أى محل من الدنيا».

ولو صحت هذه الرواية لأسفنا من كون هذا العاهل لم يحمل مثل

هذا الشعور نحو الحمراء التى بتر قسما منها ليقيم عليه بناء ثقيلا][1].

تلك حال الأندلس التى أزدهرت مع المسلمين وانحطت بعدهم، وهذه بإيجاز أسباب نشاطها، وعوامل إنحطاطها.

غير أن هذا الإنحطاط كان ظاهراً وبادياً فى الجانب المادى الذى يمكن أن تمتد إليه يد التخريب، أما ما صنعته الأندلس فى العقول والأرواح فكان شيئاً ضخماً، لا يمكن أن يناله القساوسة بالهدم، أو يتسلطوا عليه بالتحويل والتخريب.

لقد كانت الأندلس بحق مدرسة جذبت إليها الكثيرين من أصحاب الرأى، أو على الأقل الراغبين فى الفكر والمعرفة من جميع أنحاء أوربا، فتعلموا على يد أساتذتهم من العرب، ثم تحولوا بعد إلى أوطانهم الأصلية فى أوربا، فعلموا الكثيرين ما تعلموه، وكان لهذا التعليم أثره، فى نشأة الحضارة الأوربية بغير جدال.

ويؤكد أحد أساتذة الغرب وهو الأستاذ «بريفولت» أن كل تقدم مادى أو علمى محسوب لأوربا، هو فى الحقيقة إمتداد لحضارة العرب، وإن «روجر بيكون» و«فرنسس بيكون» من بعده، واللذين نسب إليهما تأسيس قواعد المنهج العلمى، هما فى الحقيقة لم يبتكراه وإنما هذا المنهج قد تعلمه «روجر بيكون» على أساتذة نقلوه عن معلميهم العرب فى «أسبانيا».

وعلى أية حال فإننا لا نستطيع أن نتحدث بالتفصيل لا فى مجال تقدم الحضارة فى «أسبانيا»، ولا فى مجال إنحطاطها بعد، إذ قصد هذه الدراسة لا يتسع لذلك، غير أننا نستطيع القول على الجملة: أن الأندلس انفردت بميزة فى العصور الوسطى، لم تتوفر لغيرها من البلدان الأوربية،

(١) راجع مجالى الإسلام — ص١٠٦ إلى ١١٣

وهى أنها قد انتشر فيها العلم والمعرفة ، وحرم منه كل مدن أوربا وقراها فيما عدا طبقة القساوسة الذين قد توفر لهم قسطاً من القراءة والكتابة ، وحظاما من التفكير بصرف النظر عن قيمة هذا التفكير .

يقول دوزى [الذى وقف جل نشاطه على الأندلس ، واشتهر بميله للعرب ، إن كل إنسان تقريباً كان يحسن القراءة والكتابة يوم خلت أوربا ممن يلم بها ما خلا الطبقة العليا من القسيسين »][1] ،

ويشرح الأستاذ « غوستاف لوبون » الفكرة ذاتها زائداً عليها أنه أبدى نوعا من الأسف غير قليل بسبب أن المسلمين لم يهيأ لهم النصر الكامل على جميع أخطار أوربا ، إذ لو حدث ذلك ، وأراده الله عز وجل لنجت أوربا من فترة الظلمات فى القرون الوسطى كما نجت أسبانيا .

يقول « غوستاف لوبون » [... فلو وفق موسى بن نصير لذلك لجعل أوربة مسلمة . ولحقق للأمم المتمدنة وحدتها الدينية ، ولأنقذ أوربة ، على ما يحتمل من دور القرون الوسطى الذى تعرفه أسبانية بفضل العرب][2] .

تلك حال « أسبانيا » حين كان العرب بها ، وهذه أوضاعها بعد أن جلى العرب عنها .

والذى يتأمل التاريخ الماضى « لأسبانيا » لا يملك إلا أن يضرب

(١) المستشرقون — نجيب العقيقى — جـ ١ — طبعة ثالثة — دار المعارف بمصر — ص ٨٩

(٢) حضارة للعرب — « د/ غوستاف لوبون » — نقله إلى العربية عادل زعيتر — طبع عيسى البابى الحلبى وشركاه — ص ٢٦٧

الكف على الأخرى وهو يقول ألا ما أشد السلب بعد العطاء ، وما أعظم قسوة الظلمة بعد شدة الضياء .

ولقد سبق القول منا مراراً أن الاحتكاك « بأسبانيا » قد ولد فى الغرب شرارة الحضارة ، التى هتكت ستار الظلمة ، وقطعت أحابيل الجهل فكان الإسلام فى أسبانيا عاملا من عوامل النهضة فى أوربا ، مافى ذلك شك ، وما فى اعتراف الأوربيين به ريب إلا فى أولئك النفر الذين دارت فى نفوسهم حمى الحقد على الإسلام وأهله فزيفوا التاريخ ، وطوعوا العلم لأهوائهم وميولهم الشخصية .

والحق على أية حال أحق أن يتبع ، وللإسلام على أية حال دور فى الحضارة الأوربية لاينكر ، ولايحتاج منا إلى بذل المجهود فى إثباته .

أما الذى يحتاج إلى بذل المجهود بحق هو أننا ندعى أن الإسلام فى أسبانيا ، وإن كان هو منارة الإشعاع التى أضاءت لأوربا طريق الحضارة والمسلمون فى أسبانيا ، وإن كانوا هم الذين قد أخذوا بيد الأوربيين فى ساحة منقطعة النظير ، فسلكوا بهم هذا الطريق ، وقطعوا بهم خلاله شوطاً عظيما برغم أن قيادهم كان صعباً بسبب ما كان فى عيونهم من عشى ليلى طول الجهل ، ونفور سببه بسلط رجال الكنيسة عليهم ، ومنعهم من التفكير إلا فيما يريدون إن كان هذا هو أثر الإسلام والمسلمين ، فإن الأمر الذى يحتاج إلى كثير من التأمل ، أن الحضارة الأوربية التى أضاء الإسلام لها طريقها ، وسلك بها المسلمون طرقها بعد أن مهدت لها تمهيداً يسر لها السير فيها ، قد انحرفت فى النهاية ، واتخذت من الدين عدواً لها ، أو على الأقل حددت له نطاق عمله فى أضيق الحدود ، وابتعدت به عن وظيفته الأولى ، وهى الوظيفة التى مجالها سلوك الإنسان وعقيدته .

ونحن نتساءل عن سبب هذا الإنحراف كما يتساءل عنه غيرنا ، فلا نجد إلا سبباً واحداً يبذ جميع الأسباب ويتفوق عليها .

وهذا السبب يرتبط برجال الكنيسة ارتباطاً وثيقاً من ناحيتين :

الأولى : قد سبق لنا أن وضحناها وهى المتمثلة فى مآسى الكنيسة وتسلطها باسم الله على جميع الأفراد والجماعات بما يعم شئون الحياة والممات .

وهذا النوع من التسلط قد جعل الأفراد والجماعات على الجملة يحذرون ويبالغون فى الحذر والحيطة من أن يسلموا قيادهم مرة أخرى للدين أو للمتدينين ، ومن أن يخضعوا فى شئونهم الدنيوية مرة أخرى لنظام يدعى أنه من عند الله .

الثانية : أن رجال الكنيسة قد أصابهم هوس الحقد على الإسلام ، والمسلمين حين رأوا أن أنواره وأنوارهم المستمدة منه قد زحفت عليهم من كل جانب تبدد كل ظلام ، وتهدد بسقوط كل صرح شامخ أسس على ظلم ، وتفضح كل دعوة كاذبة قد ادعاها أصحابها ، وكتبوها بأيديهم ، ونسبوها إلى الله زوراً وبهتانا ، وخدروا بها الضعفاء من الناس حتى يتمكنوا من سلب إرادتهم ، وقتل قيم الإنسان فيهم .

وحين أقبلت الحضارة الإسلامية تبدد ظلام أوربا كان للكنيسة سلطاناً على الساسة هناك ، ورجالات الدول ، فأوقعوا فى نفوسهم أن هؤلاء العرب كفرة ، وأنهم هواة تخريب وتدمير .

وتصادف أن العرب قد رغبوا عن القتال إلى نشر الحضارة ، واجتذبوا إلى « أسبانيا » من أسبابها وعوامل تنشيطها الشىء الكثير .

واستناداً إلى الحقد الداخلى الذى أثاره القساوسة ، وانصراف

العرب عن القتال إلى الحضارة ونشرها ، هجم الأوربيون هجماتهم المتكررة على « أسبانيا » ، حتى سقطت فى أيديهم ، وصدرت الفتاوى من الكنيسة بقتل من لم يتنصر من المسلمين ، وتعميد أطفال المسلمين قهراً وقصراً بماء المعمدان وهى عادة كنسية ، ثم صدرت فتوى بعد ذلك بقتل العرب من تنصر منهم ، ومن لم يتنصر ، وبرروا فتواهم تلك بأنه على الرب يوم القيامة أن يميز بين النصرانى ، وغير النصرانى فى الجزاء ، ثم توجت هذه المجموعة من الفتاوى المارقة بإجلاء العرب نهائياً عن « أسبانيا » ، وتدمير كل أثر يدل عليهم فيها ، وسقط العرب والمسلمون باللايين ، وتمكن الرهبان يومها من صرف شعوبهم عن أن يتجهوا إلى الدين الإسلامى ، فيأسسوا عليه الحضارة فى نفس الوقت الذى كان فيه من المستحيل أن تأسس الحضارة فى أوربا على ذلك الركام التافه من الآراء والأفكار الذى توارثته الكنيسة جيلا بعد جيل .

لقد أمد الإسلام على أية حال الأوربيين بطرائق التفكير الصحيح ، فكان سبباً فى نشأة حضارتهم حتى ولو كانت « علمانية » ، ولكنها فى الوقت نفسه حضارة لم تأسس على مبادئه العامة ، وقواعده الأساسية فى فى نطلاقها ، ولم تنسجم معه فى نتائجها وغاياتها ، بل أخذت منه جانباً وتركت جانب .

وفى هذا السبب كلام كثير لمؤرخين غربيين ، يألمون كما نألم مع اختلاف البواعث والغايات ، ويتحسرون كما نتحسر مع اختلاف فى أسباب هذه الحسرة ، وكيفية التعبير عنها .

يقول « غوستاف لوبون » ضمن كلام له طويل : [وأخذ نجم العرب السياسى فى إسبانية يأفل بعد أن مضى على سلطانهم ثلاثة قرون بلغت الحضارة العربية فيها ذروتها ، وشرع النصارى الذين دحرهم العرب إلى الشمال يستفيدون مما كان يقع بين المسلمين من الفساد والفتن وصاروا يغيرون عليهم ... وعاهد فرديناند العرب على منحهم حرية الدين واللغة ،

ولكن سنة ١٤٩٩م لم تكد تحل حتى حل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب، الذى دام قروناً، والذى لم ينته إلا بطرد العرب من أسبانية، وكان تعميد العرب كرها فاتحة ذلك الدور، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر باحراق كثير من المعمدين على أنهم من النصارى، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة، ونصح كردينال طيطلة التقى، الذى كان رئيسا لمحاكم التفتيش، بقطع رءوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالا ونساء وشيوخا وولدانا، ولم ير الراهب الدومينيكى، بليدا، الكفاية فى ذلك فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب ومن بقى على دينه منهم. وحجته فى ذلك أن من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصر من العرب، فمن المستحب، إذن، قتل جميع العرب بحد السيف لكى يحكم الرب بينهم فى الحياة الأخرى ويدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم، ولم تر الحكومة الإنسانية أن تعمل بما أشار به هذا الدومينيكى الذى أيده الإكليروس فى رأيه لما قد يبديه الضحايا من مقاومة، وإنما أمرت، فى سنة ١٦١٠م، باجلاء العرب عن أسبانية، فقتل أكثر مهاجرى العرب فى الطريق، وأبدى ذلك الراهب البارع، بليدا، ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين فى أثناء هجرتهم، وهو الذى قتل منة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠٫٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى إفريقية.

وخسرت اسبانية بذلك مليون مسلم من رعاياها فى بضعة أشهر، ويقول كثير من العلماء، ومنهم سيديو، عدد المسلمين الذين خسرتهم إسبانية، منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى إجلائهم الأخير بثلاثة ملايين، ولا تعد ملحمة سان بارتلمى إزاء تلك المذابح سوء حادث تافه لا يؤبه له، ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التى اقترفت ضد المسلمين.

ومما يرثى له أن حرمت إسبانية عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية.

ثم رأت محاكم التفتيش أن تبيد كل نصرانى ترى فيه شيئاً من النباهة والفضل، فكان من نتائج هذه المظالم المزدوجة أن هبطت إسبانية إلى أسفل دركات الانحطاط بعد أن بلغت قمة المجد وأن انهار معها كل ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب والسكان.

وها هى ذى عدة قرون مضت على ذلك الدور من غير أن تستطيع أن تنهض من هبوطها مع بذل من الجهود (١).

صورة بشعة تمثل أسوء أنوع السلوك الإنسانى، وتعبر عن أكثر ما يحتمل فى النفس من أحقاد وضغائن، لكنها صورة على أية حال تعبر أصدق تعبير عن شطر السبب المانع للغربيين، من أن يؤسسوا حضارتهم على تقوى من الله ورضوان، وعلى عمد متينة من طرائق الإسلام التى اتخذها المسلمون دعائم أساسية لحضارتهم، فى حين كان الشطر الآخر لهذا السبب الذى منع الأوربيين من أن يؤسسوا حضارتهم على تقوى من الله ورضوان، هو تعميمهم الخاطىء للحاكم الجائر الذى يقضى بأن ديانات السماء لا تصلح لتأسيس حضارة يقدر لها البقاء.

فى صقلية:

وهذا الحديث المستفيض أو المختصر فى أسبانيا، قد أوقفنا على حوادث واستنتاجات لها نظائر ملموسة فى «جزيرة صقلية»، كما أن لها نظائر وأشباه فى غير «صقلية»، وإن كانت بدرجة أقل.

(١) غوستاف لوبون — حضارة العرب — ص ٢٦٩ — ٢٧٢

لقد دارت فكرة فتح « صقلية » وانتزاعها من الرومان فى رأس معاوية بن أبى سفيان أيام خلافته أو ملكه ، كما دارت فى رءوس غيره من الخلفاء الذين جاءوا من بعده ، وقد حاول بعضهم تجييش الجيوش ، وإرسال القوة والقواد لفتح هذه الجزيرة ، غير أن هذه المحاولات ظلت فترة طويلة محاولات مائعة ، لاتخرج عن أن تكون هجمة سريعة تختبر قوة الرومان ، ثم تعود ببعض الغنائم مخلفة وراءها بعض الآثار .

وظل الحال على هذا النحو حتى فتحت « صقلية » بشكل جاد ومستقر [على يد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب فى سنة ٢١٢ هـ ، وذلك فى عهد الخليفة المأمون] (١) .

وقبل أن تفتح « صقلية » كان شاطئا البحر الأبيض منفصلين تقريباً انفصالا تاماً ، وكان فتح جزيرة « صقلية » وغيرها بمثابة التقاء تجارى بين الشرق والغرب .

ويلاحظ بعض الكتاب الغربيين الجادين أن محاولة فتح جزيرة صقلية على يد العرب ، قد مر بمرحلتين من حيث الآثار المترتبة عليه .

أما إحداهما : فكان العرب لايهتمون فيها بأصلاح ، ولايحرصون فيها على استقرار وبقاء ، وكان جل همهم الإغارة على هذه الجزيرة ، ثم الانحصار عنها ، وهم محملون بالغنائم تاركين وراءهم من الآثار مايخلفه هذا الكر والفر السريعين .

---

(١) راجع تفاصيل هذا الفتح كتاب (تاريخ الإسلام — حسن إبراهيم حسن) جـ ٢ الطبعة الثامنة سنة ١٩٧٢ م — مكتبة النهضة المصرية ص ٢١٨ وما بعدها .

ويؤكد « غوستاف لوبون » أن هذا الذى كان يحدث من آثار التدمير والسلب وتحصيل الغنائم لم يكن من المسلمين إلا مجاراة لعادات الحروب التى بلغت فى القسوة حداً لم يبلغ المسلمون عشر معشاره فى ذلك الزمان .

وأما ثانيتهما : فقد كان يمثلها حالة الاستقرار بعد الفتح النهائى للجزيرة ، حين صمم العرب على الإقامة فى هذا الإقليم .

ويتحدث « غوستاف لوبون » عن هذه الفترة حديثاً واقعياً ، فيذكر قبل أن يتناول مظاهر الحضارة فى الجزيرة بعد استقرار المسلمين بها معياراً يرى أنه من الضرورى أن يتعارف الباحث المنصف عليه ، قبل أن يتصدى إلى تقييم حضارة ما لإقليم بعينه فى فترتين أو فترات من التاريخ .

وخلاصة هذا المعيار : أن الباحث يجب أن ينظر إلى الفترة التى يريد أن يقيمها مقيسة إلى ماسبقها من فترات التاريخ ، وإلى مايتلوها من الأزمان والعصور :

واستناداً إلى هذا المقياس يستنتج صاحبنا عظم حضارة العرب فى صقلية ، والحد الذى توصلت إليه الحضارة الإسلامية بها ، وأثرها فيما جاورها من البلدان .

فما أن تمكن العرب من « صقلية » حتى أحدثوا بها نهضة قوية فى محاور مختلفة ، حيث تقدمت الزراعة تقدما عظيما بما هيأوه لها من أسباب ، وما جلبوه إلى المنطقة من أصناف زراعية ، وأنواع مختلفة من الثمار .

وقد استخرج المسلمون من بطون الأرض معادنها ، واستخرجوا كنوزها بطريقة علمية بالغة الدقة .

وعلى أساس من التعدين والزراعة قامت نهضة صناعية ضخمة ، مشهود لها فى التاريخ ، ولها آثارها المباشرة وغير المباشرة فى غيرها من مظاهر الحضارة والتقدم .

وفوق ذلك شهدت صقلية نهضة تجارية ضخمة أثرت الاقتصاد ، وعادت على الفرد والجماعة هناك بالخير والبركات .

ولقد شهدت صقلية لأول مرة تقسيما إداريا دقيقا يلائم بيئتها ، وأسلوبا فى الحكم ينسجم غاية الانسجام مع تعدد انتماءاتها ، وكثرة طبائعها الاجتماعية .

وعلى أية حال فقد أصبحت « جزيرة صقلية » منذ الفتح الإسلامى العربى منارة إشعاع ، ومركز حضارة تتباهى به أوربا ، وتستضىء بضوئه .

ولقد بلغ من تأثير العرب فى « صقلية » أن الجزيرة حين انتزعت من أيديهم ، حرص حكامها الجدد على العرب ، ولم يخرجوهم من ديارهم بل اعتمدوا عليهم فى استمرار تلك الحضارة .

ولم يتوقف العرب والمسلمون عند هذا الحد من إحداث الحضارة وإنشائها فى « صقلية » و« الأندلس » ، ولكنهم عبروا إلى جنوب فرنسا وتركوا فيها من الآثار مالا يمكن إنكاره .

وبالجملة فإن المتأمل فى هذين المعبرين « أسبانيا » و « صقلية » ، يجد أثر العرب ظاهراً بغاية الجلاء بحيث لا ينكره إلا معرض أو واهم .

ويضاف إلى هذين المعبرين ، ماوقف عليه المسيحيون أثناء الحروب الصليبية من خلائق المسلمين وحضارتهم ، ونقلوه إلى بلادهم أو على الأقل حاولوا أن يحاكوه .

فهل يمكن بعد هذا أن ينكر أحد ما لحضارة المسلمين من أثر فى نهضة الغرب .

يقول « غوستاف لوبون » محللا وناقداً : [ويجب أن يكون المرء جاهلا تاريخ حضارة العرب جهلا مطبقاً ليوافق على ما زعمه ذلك المؤرخ العالم « من أن النشاط الذى يحفز الناس إلى التقدم ليس مما تجده فى عبقرية المسلمين » ومن أن أوربة والدنيا كانتا تخسران مستقبلها » فمزاعم مثل هذه ليست مما يقف أمام سلطان النقد عندما يعلم أن التمدن اللامع حل بالبلاد التى خضعت لأتباع الرسول محل الهمجية ، وأن النشاط الذى يحفز الإنسان إلى التقدم لم يكن قويا فى أمة مثل قوته فى العرب]

ويجوز « لغوستاف لوبون » أن يتخيل ما يجوز لمثله أن يتخيله ، لقد تخيل صورة فرنسا لو أن العرب قد طاب لهم المقام فيها ، كما طاب لهم المقام فى أسبانيا ، ما الذى كان يمكن أن يحدث لها « لو هيء لها من اعتدال المناخ وطيب العيش ما يشجع العرب على البقاء فيها ؟

وما الذى كان يحدث لها لو أن الفرنسيين ملكوا رشدهم ولم يتعصبوا لموقفهم الباطل ويخرجوا العرب بحضارتهم القادمه من بلادهم ؟

بل ما الذى كان يحدث لفرنسا وما يليها من البلدان لو أن القساوسة ورجال الكنيسة على العموم ملكوا أربهم وانتزعوا من نفوسهم عوامل الحقد وبذروا مكانها أسباب الحب حتى تشرق فى سويداء أفئدتهم بنور الحكمة وحكمة التريث فيستقبلوا العرب الفاتحين استقبالا حسناً ، ويفسحوا لهم مكاناً فى القلوب والصدور ويهيئوا لهم ما يناسبهم من أسباب المعيشة وطيب المقام .

إن هذه الأسئلة وغيرها من نظائرها ، وهذا التخيل وأشباهه مما يماثله قد حملته إلينا عبارة غوستاف لوبون الواعية المتأنية ، والمتأملة المكلومة

قال « ولكن لنفرض جدلا أن النصارى عجزوا عن دحر العرب ، وأن العرب وجدوا جو شمال فرنسا غير بارد ولا ماطر كجو إسبانيا فطابت لهم الإقامة الدائمة به ، فماذا كان يصيب أوربة ؟ كان يصيب أوربة النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانيه من الحضارة الزاهرة تحت رايه النبي العربي ، وكان لا يحدث في أوربه التي تكون قد هذبت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية وملحمة سان بارتلمي ومظالم محاكم التفتيش وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع التي خرجت أوربه بالدماء عدة قرون » .

وينهي « غوستان لوبون » حديثه بما يشبه القاعدة التي تضبط مسلك العرب وتقعد لتأثير حضارتهم التي تمد بجميع الأسباب إلى الإسلام في غيرها من الحضارات أو الأمم المختلفة حضاريا حين يقول « فمهما يكن تاريخ إحدى الأمم السياسي مبهماً أو زاهراً فإن شأن هذه الأمة الحقيقي في العالم يقاس باكتشافاتها وتأثيرها في ميدان الحضارة »[1] .

ولقد سبق القول حين أنهينا الحديث عن حضارة العرب في الأندلس وتأثيرها في الغرب أن هذه الحضارة كان لها أثر في نشأة العلمانية حيث نبهت عقولا في الغرب لفها الظلام لفاً إلى قيمة الانسان الحقيقية وإلى الثورة ضد الكنيسة ورجالها ، لانتزاع حقها منها ، وقلنا هناك أن المانع الحقيقي من تأسيس الحضارة الغربية على قاعدة من الاسلام سببه الحقد الذي أثارة القساوسة في نفوس العامة ضد الإسلام والمسلمين من جهه وتصور الأوربيين الخاطئ للدين الحقيقي وحكمهم الجائر على جميع الأديان بأنها لا تصلح لقيادة البشر من جهه أخرى .

هذا كله قد سبق لنا أن قلناه هناك لتفصيل وتطويل أغنانا عن

(١) راجع حضارة العرب « غوستاف لوبون » ص ٣٠١ — ٣١٨ .

اعادتها هنا وننتهي إلى القول أن هناك عاملين رئيسيين في نشأة العلمانية في الغرب هما : مسلك الكنيسة ورجالها ، وإشراق الحضارة الإسلامية على أوربا بنورها .

صحيح أن هناك عوامل أخرى غير هذين العاملين جميعا ، غير أنها لا تخلو عن أن تكون عوامل مساعدة أو مندرجة في هذين العاملين جميعاً ، أو في أحدهما ، الأمر الذي اغرانا بالانصراف عن التحدث عنها .

على أن هناك عوامل أخرى قد صرفنا عن ذكرها ما رأيناه فيها من شدة الخيال الجامح أو ما استشعرناه من الهوى الشخصي القابع وراءها والذي يبعد بها عن العلم النزيه بمقدار ما يقربها إلى السفسطة أو المغالطة .

جدل لا معنى له :

وقد يحاول البعض أن يزج بنا أو يدفع بقضيتنا إلى أدرب من الجدل العقيم الذي لا معنى له ، كأن يتساءل عن العامل المحرك للعلمانية ، أهو الظلم الجاسم على صدور المواطنين في الغرب أم هو الفكرة العقلية التي تكونت في نفوس المواطنين بعد أن استشعروا وطئة الظلم وشربوا كأس مرارته .

والتعبير عن هذا الموقف باختصار يكمن في هذا التساؤل : هل الدافع الأساس للعلمانية هو الواقع المحس أو الفكرة المعقولة[1] ؟

وإن أخشى ما يخشاه كاتب هذه السطور أن يوقعنا مثل هذا التساؤل

(١) انظر تفاصيل هذا الموقف في « تشكيل العقل الحديث » كرين برينتون مرجع سبق ذكره .

فى لعبة الصبيان ولغز البسطاء حول هذا الوجود ونشأته المتمثل فى أيهما أقدم البيضة أم الدجاجة .

وإذا كنا لا نريد أن نقع فى أحبولة هذه اللعبة فإن يجب علينا أن نتنبه جيداً إلى أن الظاهرة الإنسانية شديدة التعقيد والتداخل بحيث يصعب على الجميع أن يفسروا نشأتها واستمرارها بعامل واحد ، وإن من يحاول ذلك قد تعرض من حيث يدرى أولا يدرى إلى مجموعة كبيرة من سهام النقد الأليم ، وعدد لا يحصى من سيوف الاحتجاج البطارة .

أما كاتب هذه الصفحات فهو يعتقد أن العلمانية قد أثر فيها وفى نشأتها الظلم الواقع على شعوب أوربا والذى كان مصدره الأول رجال الكنيسة الذين انتهكوا حرمات الإنسان باسم الله ، بعد أن زيفوا وحرفوا وكتبوا الكتاب بأيديهم وقالوا هذا من عند الله .

وبالإضافة إلى هذا الأمر الواقع المشهود الفكرة العقلية التى ساهم فى تكوينها شروق الحضارة الإسلامية واستشعار الظلم الكائن فى الواقع المشهود .